العقل الذي في الأشياء
مبدأٌ حاكمٌ على الموجودات وناظمٌ لتناقضاتها

بتول قاسم
أكاديميَّة وباحثة في الفلسفة الحديثة - العراق

ملخّص إجماليّ

نقصد من العقل الذي في الأشياء ذاك الناظم للتناقض الذي يتخلَّل وجودها. وهو بمعنى أخصّ مبدأ هذا الوجود، الذي منه تنطلق، وبه تتوجَّه وتتطوَّر، وإليه تعود عندما تحقِّق الغاية من وجودها. ولأنَّ الأشياء تتضمَّن التناقض فإنَّ فيها عقلاً يوجِّه تاريخ حياتها فتنمو وتتطوَّر وتحيا به، فإذا انتهى التناقض توقَّفت فيها الحياة. وكما أنَّ العقل الذي في الأشياء يحكم وجودها فهو يحكم وجود الإنسان والعقل الإنسانيِّ، به يعمل العقل ويُعرف، ذلك بأن الأمور كما يقال تعرف بأضدادها أو نقائضها وبها تتميَّز. فالمعرفة هي إدراك التناقض؛ كما أنَّ الوجود هو وجود التناقض، فالتناقض يعني معرفة، ويعني عقلاً تتضمَّنه الأشياء ما دامت تتضمَّن التناقض.

لا شكَّ في أنَّ علاقات التناقض كثيرة، إلَّا أنَّنا ركَّزنا على أعلاها وأوَّلها وأكثرها تجريدًا، ونقصد بها العلاقة بين الوجود والعدم، لأنَّها تختصر لنا الكلام على هذه العلاقات. ولعل أهمَّ ما جاء في البحث هو استنتاج وجود حالة أولى سابقة على خطوات الجدل الثلاث التي قال بها هيغل، وهي خطوات أو حالات العقل أو الوجود المتغيّر المادّيِّ الذي يتخلَّله التناقض، وهذه حالةٌ سابقةٌ على حركة التناقض فلا تخطو ولا تتحرَّك، بل هي ثابتة متعالية سابقة على وجود الجدل، وهي مصدره، وهي الوجود الأوَّل الذي ليس له نقيض ولا شريك.

* * *

مفردات مفتاحيَّة: العقل في الأشياء، الوجود والعدم، الحركة، التناقض الصيرورة، الديالكتيك، هيغل.

تمهيد

للجدل والفلسفات الجدليَّة التي تناولت التناقض تاريخ قديمٌ؛ وهو يمتدُّ من فلاسفة اليونان إلى فلاسفة العصر الحديث. في العهد القديم كانت فلسفة هيراقليطس هي الأشهر والأكثر حضورًا وتأثيراً على ما بعدها؛ وفي العصر الحديث فلسفة الألمانيِّ هيغل هي الأعمق والأكثر تفصيلاً وإثارة للجدل ولهذا نستعين بها مع أنَّنا نعترض على كثير من مبادئها، وسنناقشها من خلال النتائج التي توصَّلنا إليها.

تنطلق فلسفة هيغل من حقيقة معروفة ومبدأ مهمٍّ وهو أنَّ التناقض يتخلَّل عالم الفكر والمادَّة، وأنَّ «جميع الأشياء هي في ذاتها متناقضة»[1]. وترى «أنَّ هذا المبدأ هو من أكثر المبادئ تعبيرًا عن حقيقة الأشياء وماهيَّتها «[2]. ثمَّ إنَّ المتناقضات تعرف ببعضها، وببعضها تتميَّز. ذلك يعني أنَّ الفكر لا يستطيع إدراك حقيقة الشيء عن طريق ضرب من الإدراك المباشر، أو يكشف بوساطته ماهيَّته الجوهريَّة. والسبب يعود إلى أن «ليس ثمَّة معرفة مباشرة (غير موسَّطة). وهذا القول لا ينفي فقط إمكانيَّة إحراز الحقيقة بحدس حسّيٍّ مباشر، بل ينفي أيضًا إمكانيَّة بلوغ الحقيقة بوساطة مفهوم منعزل»[3]. إنَّك لا تدرك الشيء إلاَّ إذا أدركت نقيضه، فالنقيضان هما الشرط لمعرفة كلٍّ منهما، ولوجود كلٍّ منهما، « كلُّ شيء في الطبيعة، وكذلك في الفكر، يشترط وجود ضدِّه، آخره، الذي هو معيُّه ومناسِبُه الضروريّ»،[4] ذلك لأنَّه لا معنى له إلاَّ به، لا معنى له إلاَّ بالانتقال إليه، لا معنى له إلَّا بالخطوة الثانية إليه. ونحن نوافقه في وجود التناقض وفي كون المتناقضات تُعرفُ ببعضها كما ذكرنا. لكن ما نعترض عليه من كلامه هذا هو كون المتناقضات (في ذاتها متناقضة)، وهو يقصد أنَّ أحد المتناقضين هو نفسه الآخر، وأنَّه يتضمَّنه وينقلب أو يتحوَّل إليه في حركة ذاتيَّة، وهذا ما لا نقرُّه عليه .

ميتافيزيقا العلاقة كرابطة للأشياء

لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ المتناقضات تجتمع في علاقة أو وحدة يرتبط بها المتناقضان وتسمَّى وحدة النقيضين أو الضدَّين. وعمليَّة المعرفة تعتمد على إدراك هذه العلاقات؛ فالعلاقة التي تجمع بين الأشياء تولِّد خصائِصَهَا[5]. مفاد هذا أنَّه لا معنى لها خارج العلاقة، خارج الوحدة التي تجمع

[1]- المنهج الجدليّ عند هيغل، إمام عبدالفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، نفسه، ص199.

[2]- المصدر السابق.

[3]- فكر هيغل، روجيه غارودي، ترجمه وقدَّم له إلياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ص75.وينظر: «موسوعة العلوم الفلسفيَّة»، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، طبعة أولى1983، ص206ـ207.

[4]- فكر هيغل، ص80.

[5]- أنظر: فكر هيغل، ص80.

بين المتناقضين وهما فيها «غير قابلين للفصل»[1]، فأحدهما لا معنى له مفصولاً عنها، وبهذا «يصبح الجوهريُّ هو العلاقة»[2] في عمليَّة المعرفة، وفي عمليَّة الوجود، وأنَّ فهم الشيء يقتضي «الانتقال من الشيء إلى العلاقة»[3]، و«في هذه اللَّحظة يدخل الوعي حقًّا في مملكة الفهم»[4]، فالفهم والمعرفة علاقة، كما أنَّ وجود الشيء يقتضي وجوده أن يحلَّ في داخل العلاقة. ولقد حدَّد هيغل المعرفة بثلاث خطوات تنطلق من أحد النقيضين إلى الآخر، ثمَّ إلى العلاقة بينهما وهي الخطوة الثالثة. ذلك يعني أن كل معرفة هي خطوات ثلاث للأشياء في تحقُّق وجودها.

وإذا كانت العلاقة جوهر عمليَّة المعرفة وجوهر عمليَّة الوجود، وإذا كان بها يُفهم أحد النقيضين، أو يُعرف أو يوجد ويكون له، فمعناها لدى هيغل «الحقيقة العينيَّة الأولى».[5] أي أنَّها الحقيقة التي ينبثق منها الشيء ونقيضه، أو يوجدان، وهما خارجها محض عدم أو تجريد. وكون العلاقة هي الحقيقة العينيَّة الأولى-وهذا محل اتفاق معه- أي أنَّها الحقيقة فالنقيضان في داخلها متعيّنان، ولكنَّها ليست الحقيقة الأولى وهذا ما سنقرِّره في ما بعد. فهيغل يسمّي الخطوة الأولى (الوجود الخالص) الذي يعدُّه كالعدم، أو أنَّه والعدم سواء، وهذا محلُّ خلاف معه.

نشير في هذا المورد إلى أنَّ المعرفة هي إدراك التناقض، كما أنَّ الوجود هو وجود التناقض، فالموجودات المادّيَّة متناقضة. و«التناقض منطق للحركة «[6]، والحركة تتمثَّل بالرفض أو الفصل أو النفي، فهي حالة صراع. وإذا كان التناقض حركة هي صراع بين نقيضين، فإنَّ أحدهما خارج علاقته بالآخر سكون،[7] لأنَّ وجوده وحده يعني أن ليس هناك معه ما يصارعه، فهو ساكن لا يتحرّك. والسكون عدم لأنَّنا قلنا إن لا معنى أو لا وجود لأحد النقيضين خارج علاقته بالآخر، فهو عدم أو تجريد خارجها. وعليه، فالسكون يُعرف ويتحدَّد معناه بالتناقض الذي هو حالة حركة، ولا يمكن تعريفه انطلاقًا منه، بل لا يمكن تعريفه إلَّا انطلاقًا من نقيضه: « يمكن تعريف السكون انطلاقًا من الحركة لا العكس، إذ إنَّ الحركة وحدها واقعيَّة بينما السكون ما هو إلَّا تجريد»[8].

السكون إذن عدم، لأنَّه أحد النقيضين خارج علاقته بالآخر، والحركة وجود لأنَّها تناقضُ النقيضين، وأحد النقيضين يُتعرَّف بالآخر أو يوجد به. ولـمَّا كانا في داخلها وجود فهي وجود، ووجود

[1]- المصدر السابق.

[2]-المصدر نفسه، ص97.

[3]- المصدر نفسه.

[4]- المصدر نفسه.

[5]- هيغل أو المثاليَّة المطلقة، زكريا ابراهيم، الناشر مكتبة مصر للطباعة، 1970، ص155.

[6]- فكر هيغل، ص79، وينظر: «المنهج الجدلي عند هيجل» ص200 و«موسوعة العلوم الفلسفية» ص217.

[7]- أنظر: فكر هيغل ، ص 18.

[8]- المصدر السابق، ص 82.

واقعيّ: «إنَّ الحركة هي التناقض في وجوده المرئيّ «[1] أي الظاهر أو المتعينّ أو المحسوس، إذ إنَّ « الحركة الخارجيَّة التي تدركها الحواسُّ ليست إلَّا الوجود الفعليَّ المباشر للتناقض»[2]، وإذا كانت الحـركة هي التي تعـرِّف السكون أو توجده، أي إذا كانت هي علَّة وجوده، فإنَّ هذا يعني حقيقة أسبقيَّة وجودها على وجوده، لأنَّ العلَّة سابقة على المعلول. وإذا كانت الحركة نقيضين، والسكون بعد وجوده هو أحد هذين النقيضين، فإنَّ أسبقيَّة وجود الحركة على وجود السكون يعني أسبقيَّة وجودها على وجود أحد طرفيها. وهذا الاستنتاج استنتاجنا ولم يقل به هيغل .

السؤال المطروح هنا: ما صورة الحركة، إذن، عندما كان أحد طرفيها غير موجود؟

نجيب: إنَّها بصورة نقيضين، أحدهما موجود والآخر عدم غير موجود، أي أنَّها بصورة نقيض واحد هو الوجود وهو الطرف الفاعل. وهذا يعني أنَّ هناك تناقضًا آخر بين هذا النقيض الواحد(الذي يتَّسم بالاستقرار) والنقيضين الاثنين(الحركة) وإنَّ الواحد سابق على الحركة.

وثمَّة سؤال آخر هو: كيف يكون الواحد سابقًا على الحركة (الاثنين)، وقد قلنا إنَّ وجود أحد النقيضين يقترن بالآخر، وإنَّه يتطلَّب وجوده؟

والجواب هو: لقد ذكرنا أنَّ الحركة أو العلاقة قبل وجود أحد طرفيها بصورة نقيضين أحدهما وجود والآخر عدم و(الوجود) و(العدم) تناقض أو نوع من التناقض، وهكذا يستطيع هذا النقيض (الواحد) أن يسبق وجود (الاثنين)، وأن يسبق وجود التناقض لأنَّ هناك تناقضًا ولكن بلا تناقض.

ماذا نسمّي العلاقة أو الحركة عندما كانت بأحد طرفيها؟

نستطيع أن نستعمل تعبير «أصل العلاقة «، أو «أصل الحركة» ليدلَّ على العلاقة أو الحركة عندما كان أحد طرفيها عدمًا. وهذا يعني أنَّ نقيض السكون (الذي هو الحركة) له صورتان، هما: الحركة وأصل الحركة، فهو أصل الحركة قبل أن يوجد نقيضه (السكون)، وهو الحركة بعد وجوده، وهذا يعني أنَّ وجود الحركة أو العلاقة يرتبط بوجود النقيض الآخر، فوجودها ليس سابقًا على وجوده، بل إنَّ أحدهما مرتبط بوجود الآخر.

إنَّ أسبقيَّة الحركـة أو العلاقة تعني أسبقيَّة أصل الحركة أو أصل العلاقة. وكما أنَّ وجود الحركة أو العلاقة ليس سابقًا كذلك فإنَّها ليست علَّة وجود الطرف الآخر الذي يوجد في ما بعد وهو السكون أو العدم، وذلك لأنَّها معلولة وأنَّها تكون بعد إذ لم تكن موجودة، فهي ليست أصل الوجود ولا علَّته. وإذا لم تكن أصلاً للوجود فإنَّ أصلها السابق (أصل العلاقة) أو(أصل الحركة)

---

[1]- هيغل، مختارات ـ 1ـ ترجمة إلياس مرقص، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1978، ص131.

[2]- المنهج الجدليّ عند هيغل، ص200.

ليس كذلك أصلاً للوجود ولا علَّة له لأنَّه يوجد بصورة ثمَّ يكون بصورة أخرى، فهو متغيّر متحوِّل وما كان كذلك لا يكون أصلاً، وأنَّ هناك ما غيَّره وحوَّله وكان علَّةَ وجوده وتغيُّره وتحوُّله وهذا هو الوجود السابق الذي له استقلاله عن الوجود المتغيّر المتمثّل بـ(أصل العلاقة)، أو (أصل الحركة)، و(العلاقة)، أو (الحركة)، و(الوجود المتعينّ)، لأنَّ صور الوجود هذه موجودة ومتغيّرة ومعلولة به كما قلنا، ولا يمكن أن تكون العلَّة والمعلول واحدًا .

يجدر القول هنا أنَّ دليلنا على وجود هذا الوجود السابق هو أنَّ حركة الوجود المتغيّر - كما سنبيّن - تنتهي إلى أحد النقيضين فقط (الوجود المتعيّن) خالصًا من الآخر، بعد نفي الآخر، وهذا يدلُّنا على أنَّ هناك وجودًا سابقًا على الوجود المتغيّر(بصورِه المختلفة)، هو مصدرُه وهو ما بدأ منه لأنَّه هو ما انتهى إليه، فما تنتهي إليه الحركة الدائريَّة هو ما تبدأ به إذ النهاية فيها هي نقطة البداية. أمَّا لماذا كانت الحركة دائريَّة، فهذا لأنَّ حركة الصراع بين المتناقضين هي حركة غائيَّة أي أنَّها تسعى إلى غاية هي انتصار أحد النقيضين في معركة الصراع فإذا بلغتها وقفت عندها، ولمَّا كان أحد النقيضين (الوجود) هو السابق والفاعل فهو الذي يتسنَّى له الانتصار على نقيضه ودحره والبقاء وحده بعد نفي الآخر. إن انتهاء الحركة إلى (الوجود المتعيّن) فقط يعني أنَّ هنالك (وجودًا) أولَ سابقًا على (الحركة) بكلِّ تغيُّراتها وصورها لأنَّ الحركة تنتهي إلى (وجود متعيّن) فقط خالصًا من الآخر- كما ذكرنا - وهذا يعني أنَّ هنالك وجودًا سابقًا عليها وعلى (أصل الحركة) غير مقترن بنقيض، وأنَّه هو مصدر الحركة السابق عليها .

الصراع داخل العلاقة بما هي حركة

تعود مسيرة الصراع في داخل (العلاقة) أو (الحركة) إلى أحد النقيضين (الوجود) الذي بدأت منه. وصورة حركة المسيرة هذه تكون دائريَّة لأنَّ النهاية فيها هي البداية - كما ذكرنا - . ولأنَّها تنتهي إلى (الوجود) فقط (بلا علاقة مع الآخر) نستنتج وجود حالة سابقة للوجود (غير مرتبطة بغيرها) هي حالة رابعة ولا نقول (خطوة)، إنَّها حالة أولى سابقة على خطوات الجدل الثلاث التي تمثّلها الحركة أو العلاقة، ولا علاقة لها بهذه الخطوات ولا بعلاقة التناقض، فهي سابقة على التناقض وعلى حركة التناقض، فلا تخطو ولاتتحرَّك بل هي حالة ثابتة متعالية سابقة على وجود الجدل وهي مصدره. والدليل عليها كما قلنا هو أنَّ خطوات الجدل انتهت إليها، فلمَّا كانت هذه الخطوات مدفوعة بغاية فما تنتهي إليه الحركة الغائيَّة هو ما بدأت منه، أي أنَّها بدأت من الوجود الأول الذي ليس له ضدٌّ ولا شريكٌ يجمعه معه في علاقة. من هنا يتبينَّ أنَّ الوجود له أربع حالات وليس ثلاثًا كما ذهبت فلسفة هيغل . الوجود الأول هو الوجود السابق الثابت، ثمَّ الوجود المتغيّر الذي نصَّ عليه المنهج الجدليُّ لهيغل والذي له ثلاث خطوات هي:

-1 الخطوة الأولى هي عبارة عن وجود خالص غير متعيّن وعدم .

2 - الخطوة الثانية هي عبارة عن وجود متعيّن وعدم متعيّن، أي أنَّ كلا النقيضين يعارض الآخر ويناقضه في تناقض ظاهر متعيّن .

-3 الخطوة الثالثة هي الوجود المتعيّن فقط بعدما استطاع أن يدحر نقيضه العدم ويكون وحده .

هذا النقيض الذي كان موجودًا في (أصل العلاقة)، أو (أصل الحركة)، يمثّل أو يعكس الوجود السابق الذي له استقلاله عن (أصل الحركة)، والذي هو أصل الوجود مطلقًا، والذي كان وليس معه نقيض يكافئه، والذي تفرَّد في الوجود، والذي هو (الله) تعالى. هذا الوجود السابق هو علَّة وجود (العلاقة) أو (الحركة)، وهو علَّة وجود (أصل العلاقة) أو (أصل الحركة)، وهو علَّة وجود (الوجود المتعيّن)، فهو الأصل السابق، وهو مصدر الوجود. (الوجود السابق) يوجد السكون أو العدم ، وهو بذلك يوجد الحركة.

إنَّ أسبقيَّة (الوجود السابق) على العلاقة، أو الحركة تعني أسبقيَّة الحالة الأحديَّة على الحالة الاثنينيَّة (العلاقة) أو (الحركة)، وعلى الوجود الثلاثيِّ المتغيّر للعلاقة أو الحركة أو خطواتها الثلاث. فالأحديَّة هي السابقة وهذا ما نختلف به مع فلسفة هيغل .كما نختلف معها إذ ذهبت إلى أنَّ علاقة التناقض التي عبّرت عنها بالصيرورة هي الحقيقة الأولى، أمَّا الوجود السابق عليها، فهو كالعدم، تجريد خاوٍ أو هو العدم: «إن الصيرورة هي أول فكرة عيانيَّة، ومن هنا هي المفهوم الأول، في حين أنَّ الوجود والعدم هما تجريدات خاوية»[1]. فالصيرورة هي أول حقيقة عينيَّة - كما يرى - لأنَّ النقيضين لا يوجدان إلَّا في الصيرورة[2]. وهما مختلفان أي متعيّنان فيها[3]. أمَّا قبل الصيرورة فليس هنالك اختلاف أو تناقض - كما يقول - هنالك الوجود (أو الكائن) في لاتحدُّده: «في بداية الفكر ليس عندنا إلَّا الفكر في لاتحدُّده الخالص، إذ إنَّ التحدُّد يحوي سلفًا التعارض، وفي البداية لا يوجد ضدّ. الّلاتعينّ الذي لدينا هنا هو الّلاتعينّ المباشر. وهو الّلاتعينّ الذي يسبق كلَّ تعيُّن، الّلامعيّن كنقطة انطلاق مطلقة، هو ذا ما ندعوه بالكائن. عن هذا الكائن لا يمكن أن يكون لنا أحساس ولا حدس ولا تمثيل، إذ إنَّه الفكر الخالص، وبوصفه كذلك يصنع البدء»[4].

هذا الوجود السابق الذي ليس لدينا عنه إحساس ولاحدس ولا تمثيل، كالعدم - لدى هيغل - لأنَّه غير محدَّد أو غير متعيّن مثله فهما شيء واحد:[5]. «إنَّ البداية هي الوجود الخالص، وهذا

---

[1]- هيغل ص48-49، وينظر (المنهج الجدليّ عند هيغل)، ص157. وينظر كذلك: هيغل/ مختارات ـ 1ـ ص106.

[2]- أنظر: خيغل، مختارات – -1 ص 104.

[3]- أنظر: المصدر السابق، ص 103.

[4]- المصدر نفسه، ص 99، أنظر: (المنهج الجدلي عند هيغل، ص 140).

[5]- أنظر: هيغل، مختارات، ص 102.

الوجود الخالص هو فكر خالص لأنَّه لا يحتوي على أيِّ موضوع من موضوعات الفكر وإنَّما هو بالأحرى ليس إلَّا هذا الفكر المجرَّد. فنحن حين نبدأ في التفكير«لا يكون أمامنا سوى الفكر في لا تعيُّنه الخالص..وهذا الَّلاتعينُّ عبارة عن فكر - وفكر صرف - وهو بما هو كذلك يشكل البداية..» لأنَّ البدء الأول لا يمكن أن يتوسَّط له شيء «فهو لا يرتبط بغيره ولا يشير إلى شيء وراءه..»، ومعنى ذلك أنَّه خلوٌّ من كلِّ تحديد أو تعيين لأنَّ أيَّ تحديد سوف يضفي عليه طبيعة جزئيَّة تقوم بإزاء طبيعة جزئيَّة أخرى، سوف يجعله «س» وليس «لا س». وكلُّ ما نستطيع أن نحدِّد به الوجود الخالص هو أن نقول إنَّه الهوّيَّة الخالصة أو «الحياديَّة» المطلقة، فهو لا يدلُّ على شيء بالذات له وجود معينَّ. ومن هنا يمكن أن يُنعت بأنَّه تجريد صرف، إلَّا أنَّنا لابدَّ من أن نسارع ونقول إنَّه ليس نتيجة عمليَّة تجريد قمنا بها، وإلَّا لتضمَّن توسُّطًا، وإنَّما هو «..انمحاء أصيل للسمات يسبق كلَّ طابع، وهو أولها جميعًا..». والواقع أنَّ هذا الوجود الخالص أو هذا الَّلاتعينُّ المباشر هو العدم لا أكثر ولا أقلّ: «لأنَّ الشيء الذي يخلو تمامًا من كلِّ تحديد أو تعينُّ هو بالضبط ما نقصده بالعدم».

الوجود الخالص - إذن - هو الَّلاتعينُّ الخالص، أو هو السلب الخالص لأنَّه خلوٌّ من كلِّ تحديد، ومن ثمَّ فهو فكر فارغ أو عدم»[1]. وهذا ما نعترض عليه لأنَّنا أثبتنا أسبقيَّة أحد النقيضين ووجوده قبل وجود علاقة التناقض أو الحركة أو الصيرورة في تسمية هيغل والتي يعدُّها الحقيقة الأولى وما قبلها عدم وفراغ.

الوجود بين الصيرورة والعدم

يمكن وصف الوجود لدى هيغل بأنَّه وجود متعينّ، أي وجود في الصيرورة، فهو يصف الوجود الخالص السابق، والذي هو الخطوة الأولى من خطوات الجدل، بأنَّه عدم. وإذا كان كذلك فما هو العدم الذي يضعه في مقابل الوجود الخالص إذا لم يكن ثمَّة فرق بينهما، ولماذا يفرق بينهما في الَّلفظ؟.

في حديثه عن الصيرورة حيث يذهب إلى أنَّ الوجود والعدم يتحوَّل أحدهما إلى الآخر فيها، يقول إنَّ بينهما فرقًا وتباينًا وإلَّا فلا معنى للتحوُّل، لكنَّه في حديث آخر عن الوجود والعدم يقول إنَّه لا فرق بينهما، ويصفهما بصفات واحدة، فيذكر أنَّ الوجود والعدم كلاهما أفكار، وأنَّ العدم شيء موجود غير متعينّ كالوجود الخالص[2]. كذلك يقول إنَّنا إذا حاولنا الوصول إلى الوجود المطلق لا نصل إلَّا إلى العدم، وبالعكس[3]، وإنَّ النور المطلق هو ظلام مطلق[4]، وإنَّ فعل الإثبات هو فعل

[1]- المنهج الجدلي عند هيغل، ص 153-154.

[2]- المصدر السابق، ص 154.

[3]- المصدر نفسه، ص 156

[4]- المصدر نفسه، ص 161.

الإنكار[1]، ذلك لأنَّه ليس هنالك تناقض ظاهريٌّ بينهما يؤكِّد وجودهما في الظاهر، فالوجود عنده هو وجود صفات ظاهرة، ولمَّا كان الوجود الخالص والعدم بلا صفات ظاهرة، فلأنَّ هذه ناشئة من تأثير أحد النقيضين بالآخر وتأثُّره به[2]، أي أنَّها تشترط وجود تناقض واقعيٍّ ظاهر، فهما كما يصفهما عدم وتجريد.

والواقع أنَّ ما وصف به هيغل الوجود الخالص والعدم جرَّه إلى نتائج غير معقولة، فهو يقول بأن لا فرقَ بينهما، ثمَّ يقول إنَّ بينهما فرقًا في الصيرورة. ولقد وصف الماهيَّة التي هي وجود بالذات من دون علاقة بأشياء أخرى هي عدم لديه لأنَّه لا تعينّ بأنَّها قوَّة فاعلة نشطة سالبة تسلب نفسها أي تخلق سلبًا لها[3]. فالماهيَّة التي هي عدم تُعدُّ قوَّة فاعلة نافية عنده، أي ذات إرادة، وقلنا إنَّه لا ينبغي لها ذلك وفق كلامه لأنَّها عدم لا ينفي الآخر ويدخل معه في علاقة ضدّيَّة واختلاف، فأحد النقيضين ينفي نقيضه إذا كان وجودًا متعيّنًا، كما نفهم منه، إمَّا أن يكون عدمًا فهو لا ينفي الآخر لأنَّه لا علاقة له بالآخر، فلكي يكون أحد النقيضين نفيًا للآخر ينبغي أن يكون نقيضه، داخلاً معه في علاقة تناقض، أي أن يكون وجودًا متعيّنًا، وعندما يكون عدمًا فهو خارج هذه العلاقة.

من المهمِّ القول أنَّ الوجود ليس وجودًا متعيّنًا حسب، فلقد توصَّلنا إلى أسبقيَّة أحد النقيضين (أصل العلاقة) أو (أصل الحركة) على الآخر، وهولا يشترط وجود نقيضه لأنَّه سابق على وجود التناقض أو ظهوره وتعيُّنه. أي أنَّ هنالك وجودًا قبل وجود التناقض وظهوره. هيغل يؤكد هذا حين يصف الماهيَّة التي تسبق وجود الصيرورة بأنَّها تسلب نفسها، أي تخلق سلبها (العدم) وتتجلَّى . فهي قوَّة فاعلة خالقة لسلبها الذي هو موجود بموجِد، أي أنَّه ليس فاعلاً إنَّما منفعل يتلقَّى تأثير غيره فيه، وأن وجوده متأخِّر عن وجود(الوجود) الذي يخلقه. فالماهيَّة قوَّة خالقة، وليست عدمًا أو كالعدم، كما يصفها، لأنَّ العدم لا يَخلق، فهي الوجود الخالق، وسلبها مخلوق. وهذا السلب لم يكن موجودًا، أي أنَّه كان عدمًا وهي تخلقه. فما يسبق الصيرورة أو العلاقة - وهما الوجود الخالص والعدم اللَّذان يكمنان في أصل العلاقة أو أصل الحركة - يتميّزان بأنَّ أحدهما خالق والآخر مخلوق، أو سيخلق. والخالق وجود، والمخلوق قبل خلقه عدم. وهو يصفهما بأنَّهما وجود وعدم، ولكنه يقول إنَّه لا فرق بينهما. فهناك إذن تميُّز بينهما وليس صحيحًا أنَّه لا فرق بينهما، حتى قبل ظهور التميُّز وتعيُّنه وتحوُّله إلى تميُّز أو تناقض واقعيٍّ محسوس.

إذا كان الوجود الخالص عدمًا - لدى هيغل - أو هو والعدم سواء، لأنَّ أحدهما لم يتعينّ من الآخر، فهذا يعني أنَّه يصبح (وجودًا) بعد أن يتعينّ من نقيضه عقب ظهور التناقض وخلقه، وهذا

[1]- المصدر نفسه، ص 154.
[2]- المصدر نفسه، ص 208.
[3]- المصدر نفسه، ص 224.

يعني أنَّ نقيضه (العدم) يبقى عدمًا بعد التعيّن وظهور التناقض. فلكي يكون هو وجودًا متعيّنًا، يكون نقيضه (عدمًا) متعيّنًا. وبهذا لا يكون الوجود هو التعيُّن فقط، لأنَّ (العدم) أصبح متعيّنًا ولكنَّه نقيض للوجود بعد تعيُّنه أيضًا. فالوجود ليس تعيّنًا فقط، فهنالك وجود قبل التعيّن والظهور، وهنالك وجود بعده.

في ضوء ما تقدَّم، توصَّلنا إلى أسبقيَّة وجود أحد النقيضين على العلاقة أو الحركة وفسَّرنا ذلك. وقلنا إنَّ العلاقة أو الحركة التي هي نقيضان اثنان كانت بصورة أحد طرفيها يمثّله (أصل العلاقة) أو (أصل الحركة).. وهنا نذكّر بأنَّنا قلنا إنَّه لا وجود لأحد النقيضين إلا بالآخر.. فكيف يمكن إذن لهذا النقيض أن يسبق نقيضه، وكيف يمكن أن يكون له وجود بلا وجود نقيضه؟ .. نقول هنا، إنَّ كون أحد النقيضين (أصل العلاقة) أو (أصل الحركة) موجودًا، وكون النقيض الآخر: العدم أو السكون، عدمًا، هو ما يكفل وجود نوع من التناقض، لأنَّ الوجود والعدم تناقض، ولكن بلا تناقض، ونقصد بلا تناقض ظاهر أو متعيّن، ذلك لأنَّ عدم وجود أحد النقيضين يؤثِّر في الآخر ويجعله وجودًا كامنًا أو غير ظاهر. فعندما يختفي وجود العدم وهو وجود ظاهر، يختفي وجود نقيضه (الوجود) الظاهر أيضًا، والذي هو الشرط لوجوده ، فإذا لم يكن هذا الوجود الظاهر لنقيضه موجودًا، كان هو عدمًا. فالوجود الظاهر لهذا الوجود السابق كان غير موجود، وكان وجودًا محضًا إزاء عدم محض، وهذا نوع من التناقض، لكنه تناقض غير متعيّن، أو غير ظاهر، هو تناقض كامن حتى يوجد العدم فيصبح متعيّنًا أو ظاهرًا. ولو كان هيغل قد ذكر أنَّ الوجود الخالص هو نقيض كامن قبل أن تخلق العلاقة أو الصيرورة فيصبح كلٌّ منهما وجودًا متعيّنًا، لما بدا على كلامه شيء من الاضطراب، علمًا أنَّ له أقوالاً تنصُّ على الوجود الكامن أو الماهيَّة قبل أن تصبح وجودًا متعيّنًا عند خلق التناقض[1]. والواقع أنَّ هذا الوجود الكامن غير العدم، هو غنى مطلق إزاء فقر مطلق، وهو ثبوت إزاء محو، وهذه أوصاف هيغل نفسه. أمَّا نحن فنفضّل أن نسمّيهما حياةً وموتًا أو امتلاءً وخلوًّا أو فراغًا، وهو المصطلح الذي تطلقه الفيزياء على العدم . والامتلاء والفراغ يكونان قبل التعيُّن والظهور وبعده، فالوجود والعدم - كما قلنا - ليسا هما التعيُّن والظهور أو عدم التعيُّن والظهور فقط .إنّهما يمثّلان نوعًا من التناقض ولكن بلا تناقض لأنَّ (العدم) لم يوجد بعد، ومع ذلك فهو في مقابل الوجود الخالص يكتسب تميُّزًا ما أو تعريفًا.

هذا التمييز بين العدم والوجود لا يراه هيغل، فالوجود الخالص الذي يسبق العلاقة أو الصيرورة، وبه يبدأ الجدل، لا يمكن تمييزه من العدم: «نحن لا نستطيع أن نفرق بين الوجود والعدم، لأنَّ كلَّ تفرقة تتضمَّن شيئين، وبينهما صفة توجد في الواحد من دون الآخر، ولكن الوجود خلوٌّ من كلِّ

[1]- المصدر نفسه، ص 185-186.

صفة وكذلك العدم. فضلاً عن ذلك، حين نفرّق بين شيئين فلابدَّ من أن نجد شيئًا مشتركًا يندرجان تحته، هو الجنس، وفي حالة الوجود الخالص والعدم الصرف ليس ثمَّة شيء مشترك يمكن أن تقوم عليه التفرقة، وقد يعترض معترض»[1] ونحن أيضًا، نعترض على فلسفة هيغل، إذ ذهبت إلى كمون كلا النقيضين، أحدهما في الآخر:ــ « كلٌّ منهما يخفي في داخله آخره»[2]، ونردُّ عليها بأنَّ أحد النقيضين المتأخِّر عن نقيضه في الوجود وهو (العدم) أو (السكون) له صفة أنَّه يكمن في نقيضه (العلاقة) أو (الحركة) فيكون عدمًا غير ظاهر، ويكون نقيضه (الوجود) بصورة (أصل العلاقة) أو (أصل الحركة). فالعدم هو أحد النقيضين خارج علاقته بالآخر، أي أنَّه خارج نطاق العلاقة، ومكانه فارغ، وهذا الفراغ يمثّل كمونًا لأحد النقيضين. وهنا ننبّه إلى أنَّنا لانعني بكمون العدم في الحركة أنَّه يكمن في هذا النقيض الذي يكون أحد طرفي الحركة وهو الوجود الخالص، فهذا النقيض صافٍ في جوهره لايتضمَّن تناقضًا، ونحن نأخذ بمبدأ الهوّيَّة الثابتة التي لاتتضمَّن تناقضًا بالنسبة إلى هذا النقيض. أمَّا اجتماعهما في (الحركة) أو العلاقة - وهو ما ذهبنا إليه - فهذا الاجتماع لايعني أن تختلط هوّيَّتاهما وأن لا يكون بينهما فرق، بخلاف فلسفة هيغل التي ذهبت إلى أنَّ كلاًّ من النقيضين يعتمد وجوده على وجود الآخر[3]، ونردُّ عليها بأنَّ هذا النقيض المتأخِّرلا يعتمد النقيض السابق على وجود نقيضه ليوجد بدليل أنَّه كان سابقًا في الوجود قبل أن يوجد الآخر.

معضلة هيغل

أخطأ هيغل حين ضرب مبدأ الهوّيَّة الثابتة الذي يتضمنه المنطق القديم، منطق أرسطو. فذهب الى أن الأشياء متناقضة في ذاتها، وأن الشيء ينقلب إلى ضدِّه ويتحوَّل اليه. ولقد أوقعه هذا في مأزق لايمكن تفسيره أو قبوله وضرب مبدأ الصيرورة وهو من المبادئ المهمَّة في منهجه الجدليّ. فالصيرورة تعني لديه انتقالاً بين مختلفين وإلاَّ فلا معنى للانتقال، فلا انتقال من دون اختلاف ولاصيرورة. ولكن هذا الانتقال وهذه الصيرورة يكونان من الشيء إلى نفسه، وبهذا تتحطَّم مقولة الصيرورة ولا يعود ثمَّة معنى لبقائها: (الصيرورة أوّلاً: هي انتقال الوجود إلى العدم ولكنَّ العدم هو الوجود، فهي انتقال الوجود إلى الوجود، لكن ذلك ليس صيرورة ومن ثمَّ فقد اختفت. ثانيًا: هي انتقال العدم إلى الوجود، ولكنَّ الوجود هو العدم، ولذا فالصيرورة هي انتقال العدم إلى العدم. وهذا الانتقال كذلك ليس صيرورة، وهكذا تنهار وتتحطم. ولن تكون نتيجة هذا الانهيار الوصول إلى العدم لأنَّ معنى ذلك أن نرتد إلى إحدى المقولتين، ولن تكون النتيجة أيضًا وجودًا وإنما هي اتحاد متوازن للوجود والعدم هو الوجود المتعيّن: وهذا الاتحاد المتوازن يصيب كلاًّ منهما بالشلل

[1]- المنهج الجدلي عند هيغل، ص 154.

[2]- فكر، هيغل، ص 80.

[3]- أنظر: «المنهج الجدلي عند هيغل»، ص 202.

على حدِّ تعبير هيغل فتتوقَّف الحركة أو الصيرورة .

هذا الأمر دفع أحد شرَّاح هيغل إلى القول بضرورة الاستغناء عن لفظة الصيرورة واستبدالها بغيرها: ((إنّ مقولة الصيرورة قد يفهم منها أنَّها تتضمَّن فكرة التغيّر إلَّا أَّن ذلك غير صحيح على الإطلاق.. إنَّ سير الجدل سيكون أكثر وضوحًا لو أنَّنا استغنينا عن لفظة (الصيرورة) وأطلقنا على مركب الوجود والعدم اسم الانتقال إلى الوجود المتعين)). وإذا كنَّا نؤمن بمبدأ الهويّة ولانؤيّد هيغل بإلغاء هذا المبدأ ودعواه بأنَّ الشيء هو ضدُّه، فنحن بحاجة إلى تفسير قولنا بوحدة الأضداد والعلاقة بين الضدَّين. والحقيقة أنَّنا نقصد بذلك أنَّ النقيض يستدعي نقيضه، فهو يوجد ويعرف من خلال علاقته به. وهذه العلاقة هي ما نقصده بوحدة الضدَّين أو العلاقة بينهما، وهي علاقة لاتمسُّ حقيقة وجوهر كلٍّ منهما، وهما يتفاعلان في داخل هذه العلاقة أو الوحدة، وليس أحدهما هو الآخر. وفي داخل كلِّ الأشياء هناك وحدة للمتناقضات لاتعني أنَّ هذه المتناقضات تزدوج هوِّيَّتها فتكون هي الشيء ونقيضه في الوقت نفسه. ومن ضمن هذه الأشياء الإنسان والعقل الإنسانيُّ الذي يعمل من خلال التناقض ويوحِّد بين المتناقضات ليعرفها، هو وحدة متناقضات أو علاقة بينها، وقبل أن يكون علاقة (اثنين) ويداخله السلب أو النقص كان مسبوقًا بالواحد (أصل العلاقة) أي العقل الكليِّ والهويّة الخالصة، الذي هو الحالة السابقة على العقل الإنسانيِّ، والوجود الإنسانيِّ، والوجود الماديّ للأشياء.

لا بدَّ من الإلفات هنا إلى أنَّ المناقضة صراع يسعى فيه أحد النقيضين إلى هدم نقيضه والقضاء عليه، وكنَّا قد قلنا إنَّ الوجود السابق أو الحالة الوجوديَّة الأولى السابقة على وجود علاقة التناقض أو الحركة ووجود السكون هو مصدر لهما أي لوجودهما، أي أنَّه يوجدهما، وسبب إيجاده لهما أنَّه يريد أن يتجلّى لأنَّه وجود جوهريٌّ خالص من دون صفات ظاهرة، وهذا يعني أنَّه في صناعته للعلاقة يضع وجودًا يمثِّله كأحد طرفي العلاقة في مقابل العدم أو السكون نقيضه في العلاقة، وبهذا يتجلّى ويتعيّن بوجود علاقة التناقض. وهو بإيجاده للعلاقة أو الحركة يوجد العدم أو السكون أو يظهره لأنَّه أحد طرفي العلاقة أو الحركة، وقبل أن يوجد كان فراغًا أو خلوًّا فيها. هذا الفراغ أو الخلوُّ سيصبح نقيضًا ظاهرًا يتَّخذ صفة الضدِّ من نقيضه (الوجود) الذي يجتمع معه في العلاقة أو الحركة، والذي سيصبح هو كذلك وجودًا ظاهرًا له صفات وخواصٌّ ظاهرة إزاء نقيض له صفات وخواصٌّ ظاهرة. والواقع أنَّ وصفة الوجود التي نركز عليها لدى هذا النقيض هي صفة إيجابيَّة وفاعلة تعني الحياة والقدرة على الإحياء والإيجاد. أمَّا صفة العدم وخواصُّه فهي محو لما يتَّصف به الوجود، فهو خلوٌّ من الحياة، وهو سلبيٌّ منفعل يتلقَّى فعل الوجود فيه عندما يحوِّله إلى وجود مثله، وجود يعكسه أو يظهره بعدما كان كامنًا.

كنا قد ذكرنا أنّ الموجودات الماديَّة ومنها الإنسان والعقل الإنسانيُّ عبارة عن علاقة تناقض، فالكون الماديُّ تكوِّنه الذرَّات وهي أصغر جسيماته وتتكوَّن من علاقة بين شحنة موجبة وشحنة

سالبة تناقضها. وهذه الذرَّات تكوِّن جسم الإنسان لأنَّه من ضمن أشياء الكون المادّيَّة. وإذا نظرنا إليه بكونه مؤلَّفًا من خلايا وليس من ذرَّات فهذه الخلايا مؤلَّفة من عامل ذكريٍّ وآخر أنثويٍّ، وقد اتَّضح في دراسة لنا سابقة أنَّهما يمثّلان علاقة تناقض بين الوجود والعدم . وكون الإنسان علاقة يذكره الإمام علي(ع): «معجون بطينة الألوان المختلفة والأشباه المؤتلفة، والأضداد المتعادية والأخلاط المتباينة»[1]. وإذا نظرنا إليه في تكوينه الروحيِّ والفكريِّ فهو مزيج من علاقات التناقض، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في الآية الكريمة: « **ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها** »[2] شرَّها وخيرَّها ، ففي كلِّ إنسان جانب إلهيٌّ وجانب شيطانيّ. ولقد تحدَّى الشيطان الله تعالى وتوعَّد أن يحاربه عن طريق الإنسان بأن يحرفه عن صراطه المستقيم . وهذا يعني أنَّه في صراع بحكم طبيعته المتناقضة. كذلك العقل الإنسانيُّ يخوض صراعًا داخليًّا ضدَّ نفسه، ذلك أنَّه يتضمَّن معرفة كلّيَّة أو وجودًا كليًّا سابقًا عليه (أصل العلاقة)، وهذا الوجود الكلّيُّ يحاول أن يتجاوز عقل الإنسان (العلاقة) لكونه وجودًا جزئيًّا لعدم نفيه بعدُ للعدم أو السلب الذي فيه، وذلك لكي يرقى بالعقل الإنسانيِّ إلى مستوى الكلّيَّة. وهذا النوع من الصراع لم ينصّ عليه هيغل.

واذا كان الوجود السابق يوجد (العلاقة) ويوجد الصراع، فإنه يسيطر عليه، ونتيجة الصراع ستؤول اليه، وهو الذي سيتسنَّى له الانتصار بهدم نقيضه أو القضاء عليه والقضاء على التناقض(العلاقة)، وهذا هو غاية الصراع. وإذا كان العقل الإنسانيُّ(علاقة) فنتيجة الصراع تعني تجاوزه لطبيعته الجزئيَّة أي لكونه علاقة -بتجاوزه للسلب الذي فيه - وعودته إلى العقل الكلّيِّ السابق عليه والمتضمَّن فيه.

قلنا إنَّ هذا النقيض السابق يوجد النقيض الذي كان عدمًا، ونحن سمَّيناه وجودًا، وإذا كان هو وجودًا فإن نقيضه عدم.. واذا كان وجود هذا النقيض الذي كان عدمًا يوجد التناقض، فهذا يعني أنَّه يبقى يحتفظ بصفة العدم المناقضة للوجود بعد وجوده، أي يبقى يحتفظ بصفة (ضدّ الوجود)، فهو يمثِّل العدم - كما قلنا - رغم تحوُّله إلى وجود لأنَّه على الضدِّ ممَّا يمثِّله الوجود. ووجوده يعني (ظهوره) تميّزه من نقيضه، أو خلوَّه منه، إنَّه يعني وجود الفراغ أو الخلوّ أوظهوره .

نضرب مثالاً على ذلك: إذا فرضنا أنَّ الخير (وهو أحد النقيضين في علاقة الخير بالشر) هو هذا النقيض السابق في الوجود، فإنَّ الشرَّ نقيضه هو عدمه، هو الذي تنعدم فيه صفة الخير أو ماهيَّته، ينعدم فيه (وجود) الخير أو يُنقض. فهو بالنسبة إلى الخير الذي هو (وجود) يمثِّل هذا النقيض الذي يحتفظ بصفة العدم (عدم وجود الخير) بعد وجوده.. وعلى هذا، تكون الموجودات المتناقضة، بعضها يمثِّل الوجود وبعضها الآخر يمثِّل العدم مع أنه وجود.

---

[1]- نهج البلاغة، دار الأندلس للطباعة والنشر ـ بيروت، 1993، ص 29

[2]- القرآن الكريم، الشمس، 7، 8.

العدم مجرّد نقيض افتراضي للوجود

إنَّ وجود العدم يعني ظهوره بعد أن لم يكن ظاهرًا، واتّخاذه صفة الضدِّ من (الوجود) يعني نقيضه. وبهذا الظهور ظهر التناقض الذي كان غير ظاهر أو غير متعيّن. هنا نميّز بين وجود العدم ووجود الوجود السابق عليه.. وجود العدم يشترط وجود نقيضه، فهو وجود ظاهر لأنَّ النقيضين سيكونان موجودين، يُظهِر أحدُهما الآخرَ أو يحدّده. أمَّا وجود الوجود فلا يشترط وجود نقيضه، فهو سابق على وجود نقيضه، وعندما كان سابقًا وكان نقيضه عدمًا، كان وجودًا محضًا ضدَّ عدم محض. وقد قلنا إنَّ أحد النقيضين يستمدُّ معناه أو تتَّحدد صفاته من نقيضه، لأنَّ الصفات هي علاقة بالآخر كما تقول فلسفة هيغل. ولمَّا كان نقيض الوجود عدمًا، كان هو وجودًا محضًا بلا صفات ظاهرة أو متميّزة، ولذلك نسمّيه وجودًا كامنًا أو جوهريًّا غير ظاهر.. أمَّا وجود العدم فهو وجود ظهور فقط، لأنَّه لا يوجد من دون وجود نقيضه، ولأنَّه يبقى يحتفظ بصفة (العدميَّة) بعد وجوده، لأنَّه ضدُّ هذا النقيض الذي كان موجودًا. وقد ضربنا لوجوده مثلًا بوجود (الشرّ) الذي هو عدم للخير، الذي يبقى يحتفظ بصفة (عدم الخير) بعد وجوده.. أمَّا وجود (الوجود السابق) فهو وجود بالماهيَّة لأنَّه كان موجودًا قبل وجود الآخر الذي كان عدمًا، وهو ضدُّ العدم، ولكنَّه قبل وجود العدم واتخاذه صفة الضدِّ لم يكن متميزًا هو الآخر تميزًا ظاهرًا، فكان وجودًا جوهريًّا كامنًا، وجودًا محضًا ضدَّ عدم محض . وبعد وجود العدم، أي ظهوره، وظهور التناقض، أصبح وجودًا ظاهرًا، أي أنَّه أصبح وجودين: وجودًا بالماهيَّة، ووجودًا بالظهور. أمَّا وجود العدم فهو ذو جانب واحد، وجود بالظهور والتعيّن فقط .ولقد قلنا إنَّ العدم هو عدم لأنَّه خارج علاقته بنقيضه، وإنَّه يتحوَّل إلى وجود في داخل علاقة التناقض لأنَّه يظهر ويتميَّز في داخل هذه العلاقة من نقيضه، يكون له معنى، أي تتحدَّد صفته بعد أن لم تكن كذلك، وبعد أن يقترن بنقيضه وينسب اليه .

وجود العدم - إذن - يعني تحوُّله إلى علاقة، لأنَّه كان عدمًا خارجها. وإذا كان يعني تحوله إلى علاقة، وإذا كانت العلاقة تعني صراعًا بين طرفيها، وأنَّ للصراع نتيجته التي ينتصر فيها هذا النقيض الذي هو سابق، أي (الوجود) وأنَّه يدحر عدوَّه، فإنَّ الطرف الذي سيبقى من هذه العلاقة هو الوجود.. هو الطرف الذي يمثِّل الوجود السابق، فهو يقضي على الطرف الذي يمثِّل العدم، ويَخلف وجوده، فتبقى العلاقة (وجودًا) وتنتهي عدمًا.

هكذا تنتهي عمليَّة النقض إلى القضاء على التناقض وإلى (وجود) فقط هو الوجود الظاهر أو المتعيّن الذي يمثِّل وجودين هما: الوجود السابق (أصل العلاقة) أو (أصل الحركة) وهو الذي كان وجودًا جوهريًّا كامنًا، والوجود الماديّ الظاهر، الذي يعكس هذا الوجود السابق بعد وجود العدم والقضاء عليه أو نفيه وتحويله إلى (نفي النفي) أو الإثبات وهو الوجود المتعيّن ، العاكس

والمُجلي. هذا الوجود المتعينّ الذي يعكس الوجود السابق يشير إلى علاقة التناقض التي انتهت لأنَّه نفيٌ لوجود العدم (الصفة التي قضي عليها) أو عدم لها، فهو الصفة الأخرى منفيّة، أي أنَّه سلب للآخر، أي أنَّه يتضمَّن الآخر منفيًّا، يقول هيغل: « فإذا كنا نتحدَّث عن الوجود المتعينّ، فلابدَّ من أن نلاحظ أنَّه يتضمَّن السلب كذلك . إنَّه وجود كذا وليس وجود شيء آخر، ولو رفع منه هذا السلب لعدنا من جديد إلى الوجود الخالص الفارغ أو الّلاتعينّ بما هو كذلك»[1]. فالوجود المتعينّ يتضمَّن سلب الآخر، يتضمَّن الآخر منفيًّا. ويقول كذلك: «التعينُّ أو الكيف إيجاب وسلب في آن معًا، أو هو وضع ورفع في وقت واحد، ويرجع ذلك إلى أنَّه يشمل الوجود والعدم (أو الإيجاب والسلب). فالكيف من ناحية تعينّ للشيء، أي هو ما هو عليه، أعني وجوده. فإذا كان الشيء يتَّصف بصفات معيَّنة كأن يكون لاذع المذاق أبيض اللون، على شكل مكعبات.. إلخ، قلنا إنَّ هذا الشيء هو الملح، فالكيف من هذه الناحية وجود الشيء نفسه. والكيف من ناحية أخرى جانب سلبيّ: فالكيفيَّات التي تجعل الشيء قطعة من الملح، تجعله أيضًا ليس قطعة من السكر. ونحن لو نظرنا إلى الجانب الإيجابيِّ في الشيء لوجدنا أنَّ هذا الجانب هو وجود الشيء كما هو موجود في ذاته وبمعزل عن الأشياء الأخرى. وإلى الشيء في جوانبه السلبية، استطعنا أن نقول إنَّ هذا الجانب ينفي شيئًا آخر، وهو بذلك الوجود الذي له علاقة بأشياء أخرى، أو ينفي أشياء أخرى، وهو من هذه الناحية مقولة فرعيَّة هي الوجود للآخر»[2]. فكلُّ موجود متعينّ أو ماديٍّ له علاقة بالآخر من حيث أنَّه نفي للآخر: « كلُّ تعينّ سلب كما قلنا، والكيف تعينّ للشيء، فالكيف سلب»[3].

حريٌّ القول أنَّ الوجود المتعينّ أي الماديَّ يتضمَّن الآخر منفيًّا، وهو هذا المظهر الذي يمثِّل عمليَّة البناء بعد الهدم، وهو الخطوة الثالثة والأخيرة من خطوات الحقيقة، حقيقة الشيء، وهو يمثِّل تحقُّقًا للخطوة الأولى (الماهيَّة أو الجوهر)، وعودة إليها، لأنَّه يمثِّل التحقُّق الفعليَّ للماهيَّة أو الجوهر في الوجود الماديِّ الواقعيِّ أو الوجود المتعينّ، وهو بهذا ينهي مسيرة الحقيقة، ويوقف حركتها، لأنَّ غاية المسيرة هي أن تتعرَّف الخطوة الأولى أو تتعينّ، ولم يتحقَّق هذا إلَّا بالخطوة الثالثة التي قلنا إنَّها الخطوة الأخيرة لأنَّها نفي للخطوة الثانية، نفي للنفي. وهي بهذا عودة للخطوة الأولى بعد أن أصبحت متعيّنة سالبة للخطوة الثانية أو نافية لها .

من هنا، فإنَّ قضاء الوجود المتعينّ على التناقض يعني القضاء على الصراع وعلى الحركة.. أي أنَّ الحركة لها نهاية هي نهاية التناقض، نهاية الصراع، وعندها يستقرُّ سير الأشياء، ولقد قلنا إنَّها متحرِّكة لأنَّها (متناقضة) ثمَّ مستقرة، بعد أن تفارقها الحركة، ويفارقها التناقض .وبالتالي فإنَّ

[1]- أنظر::المنهج الجدلي عند هيغل»، ص 159.

[2]- المصدر السابق، ص 160.

[3]- المصدر نفسه.

العلاقة أو الصيرورة - لدى هيغل - يُقضى عليها، وسـوف تنتهي إلى هذا الوجود المتعيّن ونتيجتها: «حتى تصوُّرنا الشائع للصيرورة أنَّ شيئًا ما يخرج منها، وأنَّها من ثمَّ لها نتيجة. بيد أنَّ هذا التصوُّر قد يثير تساؤلًا: لماذا لا تظلُّ الصيرورة مجرَّد صيرورة، ولماذا يكون لها نتيجة؟ .. والإجابة على هذا التساؤل تأتي ممَّا تظهر عليه الصيرورة فعلاً. إنَّها تحتوي على الوجود والعدم بطريقة تجعل هذين العنصرين ينتقلان دائمًا الواحد إلى الآخر، ويلغي الواحد منهما الآخر، وطالما أنَّ الوجود والعدم يفنيان في الصيرورة (وهذه هي فكرة الصيرورة نفسها) فلابدَّ من أن تفنى هي الأخرى.. «إنَّ الصيرورة تبدو كما لو كانت النار التي تأكل نفسها بنفسها حين تحرق الأشياء الماديَّة. ونتيجة هذه العمليَّة على أيَّة حال ليس عدمًا خالصًا، ولكنَّه وجود يتَّحد مع السلب في هوّيَّة واحدة، وهو ما نسمّيه بالوجود المتعيّن»[1]. ولابدَّ من أن نشير إلى أنَّ هذا الوجود الذي يتَّحد مع السلب في هوّيَّة واحدة لدى هيغل هو غير ما نقصده بقولنا إنَّ هذا الوجود الماديَّ المتعيّن الذي تنتهي إليه الحركة، والذي هو الخطوة الثالثة من خطوات الحقيقة، يتضمَّن سلب الآخر، فنحن لا نقصد أنَّه يتضمَّن العدم نقيضه إنَّما نقصد أنَّه يتضمَّن نفيَه (نفي النفي) ولا يتضمَّنه هو كما يذهب هيغل، وهو نفسه الذي قال إنَّ الخطوة الثالثة هي نفي للنفي أي أنَّها إثبات.

اختفاء الكينونة والعدم

في هذا السياق يمكن القول أنَّ التناقض الذي تمثّله العلاقة يختفي ليحلَّ محلَّه الوجود المتعيّن كما يقول هيغل: «الكينونة والعدم بوصفهما ليسا إلاَّ واحدًا في الصيرورة فإنهما يختفيان. الصيرورة من جرَّاء هذا التعارض الذي تحويه، تمضي في الوحدة حيث ينحذف الضدَّان، ونتيجة هذا المضيِّ هو الوجود (الكينونة المتعيّنة)»[2] التي قلنا إنَّها تعني عنده الكينونة التي تنطوي على ضدِّها أو سلبها، وليست التي تنطوي على نفي سلبها .

وعليه، فالعلاقة أو الصيرورة هي مرحلة ما قبل الوصول إلى الوجود المتعيّن أو الماديِّ الظاهر وحده.. «إنَّ الصيرورة لـم تكن سوى قنطرة ومعبر إلى الوجود المتعيّن»[3]. ولكن الوجود المتعيّن الذي تنتهي إليه الصيرورة لدى هيغل هو وجود يتَّحد مع العدم - كما قلنا - أي الوجود الذي ليس له هوّيَّة خالصة، وليس هو الوجود المتعيّن الذي تكون الصيرورة أو العلاقة معبراً له، وهو الذي ينفي الآخر ولا يتضمَّنه حيث أنَّه خلوٌّ منه وسلب له وإثبات في الوقت نفسه. والحقَّ إنَّ كلام هيغل على الوجود المتعيّن والصيرورة فيه غموض واضطراب.

---

[1]- المصدر نفسه، ص 158.

[2]- هيغل، مختارات – -1 ص 108.

[3]- المنهج الجدلي عند هيغل، ص 168.

غاية الحركة بلوغ العقل

قلنا إنَّ أحد النقيضين هو ضدٌّ للآخر ونفيٌ له، أي أنَّ حقيقة وجوده تتعلَّق بحقيقة الآخر، ولهذا يشترط لوجوده ألَّا يتجرَّد ممَّا يشير إلى علاقته به. فالوجود هو نفي للعدم، ولكن الوجود كان موجودًا والعدم نقيضه كان عدمًا قبل أن يتمَّ نفيه.. لابدَّ إذن من أنَّ حقيقة وجود (الوجود) تتأثَّر بالعدم. هل يلغي العدم الوجود، أي هل يعدمه ما دام العدم ضدًّا للوجود أيضًا ونفيًا له؟... نردُّ على هذا السؤال بـ لا، فالوجود كائن كما استنتجنا. وما هو تأثير كينونة حالة العدم على الوجود الذي هو نفي لها أيضًا ما دامت لا تعدمه وما دام وجوده كائنًا؟ هنا نقول: إنَّ العدم لا يعدم وجود نقيضه (الوجود) أو ينفيه كما قلنا، فوجوده كائن ولا يتحوَّل إلى عدم.. إنَّه يعدم الوجود الظاهر فقط . وعدم وجوده هو أو عدم ظهوره يؤثِّر في الوجود السابق بأن يجعله غير ظاهر أو غير متعيّن. وهذا يعني أنَّ هنالك وجودين- كما قلنا - الوجود السابق على العلاقة أو الحركة، أي الجوهريَّ الكامن أو غير المتعيّن أو غير الظاهر، والوجود الذي يظهر بوجود العدم، فهو وجود متعيّن أو ظاهر. فالعدم لا يعدِم الوجود السابق على الحركة أو يقضي عليه، لأنَّ هذا كائن، لكنَّه يكتم صفته ما دام عدمًا، يجعله كامنًا، أي أنَّ العدم يسبب كمون الوجود، فيكون وجودًا بالذات .

معنى ذلك أنَّ العدم هو قضاء على الوجود الظاهر، ولذلك كان كائنًا، والوجود السابق على العلاقة أو الحركة كان موجودًا، لأنَّ العدم ليس نفيًا له، العدم لا ينفي هذا الوجود، بل ينفيه هذا الوجود، فالوجود نافٍ والعدم منفيٌّ، ينفيه الوجود السابق. وليس صحيحًا أنَّ كلا النقيضين أحدهما ينفي الآخر، أو كما يقول هيغل يلغي أحدهما الآخر في الصيرورة ويتحوَّل إلى الآخر. كيف يمكن للعدم أن يكون فاعلًا أو قوَّة سالبة نافية، والعدم موت كما يصفه؟ العدم لا ينفي لأنَّه ليس بقوة. وبعد أن أصبح متعينًا واتخذ صفة الضدِّ للوجود بعد وجود العلاقة ووجوده فيها يبقى مجرَّدًا من صفة (النافي) لأنَّ هذه صفة الوجود الذي هو (الفاعل) لا صفة (المفعول) أو (المنفيّ) التي هي صفة العدم، وهذا هو نوع من التناقض بينهما، وليس صحيحًا بهذا أنَّ أحدهما ينفي الآخر، أو أنَّهما يتنافيان.

من هنا، فإنَّ وجود العدم هو وجود ظاهر، وهو عدم إذا كان الوجود كامنًا. أمَّا الوجود السابق فهو وجود عندما كان العدم عدمًا لكنه وجود كامن وبعد وجود العدم يتحوَّل إلى وجود ظاهر كذلك في العلاقة، فهي تُظهِر كلا النقيضين.. فالوجود الكامن هو جوهر أو فكر أو مضمون، والوجود الظاهر هو عَرَض ظاهر أو فعل أو شكل يُظهِر الوجود السابق عليه فيجعله ظاهرًا، وبهذا يكون للوجود السابق وجودان: باطن وظاهر (قبل أن يوجد العدم وبعد وجوده). وللوجود المتأخِّر وجود واحد، ظاهر، وهذا هو الفرق بينهما.

وتنبغي الإشارة إلى أنَّ الوجود السابق الذي هو الماهيَّة أو الجوهر أو الفكر أو الروح يخلق العدم، أو يوجده فيتحوَّل إلى وجود ظاهر أو متعينّ أو واقع مادي يتجلى به. ومن هذا الواقع أو الوجود الظاهر الإنسان صاحب العقل المفكر، أي أنَّ الوجود السابق يريد أن يتجلَّى كذلك من خلال المعرفة الإنسانيَّة والعقل الإنسانيِّ من ضمن الوجود الماديِّ الذي يتجلَّى به والمتمثِّل بالموجودات المادّيَّة والكون أجمع. وإذا كان الوجود السابق يوجد العدم أو يظهره على مراحل أو أجزاء فإنَّ ظهور الوجود الماديِّ المتمثّل بالإنسان والعقل الإنسانيِّ الذي يسعى لأن يُجلي المعرفة الكليَّة سيكون على مراحل أو أجزاء حتى ظهور العقل الكامل الذي يخلو من كلِّ سلب، والذي يتجاوز نقص العقل الإنسانيِّ الجزئيِّ، ويحقِّق عودته إلى العقل الكلّيِّ المطلق . هذه المراحل الجزئيَّة الكثيرة تُختزل بثلاث خطوات يخطوها العقل الإنسانيُّ ليلتحق بهذه النهاية. وهذه الخطوات تمثِّل وجود علاقة التناقض بصورها الثلاث . وقد وصفها هيغل في المعرفة الدينيَّة - التي هي ثاني خطوة من خطوات العقل لديه - والتي فيها يسعى الإنسان لمعرفة المطلق أو الله والتوافق معه، فيحصل هذا عبر لحظات ثلاث تقابل لحظات العقل الثلاث، وهي: لحظة العقل الكلّيّ أو الله ، وهي تقابل لدينا لحظة (أصل العلاقة)، ثمَّ لحظة الجزئيَّة التي يشطر العقل الكلّيُّ فيها نفسه إلى العقل الكليِّ والعقل الجزئيِّ متمثّلاً بعقول الأفراد المتناهية. والعقل الكليُّ والجزئيُّ هنا منفصلان يقف كلٌّ منهما في مواجهة الآخر بوصفهما نقيضين، وهذه تقابل لدينا لحظة (العلاقة) أو (الحركة). ثمَّ لحظة الفرديَّة وهي عودة الجزئيِّ إلى الكليِّ وعلاج الانقسام الذي حدث، وهي ما يقابل (الوجود المتعيّن) . هذا يعني أنَّ العقل البشريَّ يسعى لإلغاء بعده وانفصاله عن الله، ويكافح لكي يربط نفسه به ويتصالح معه، وهذا الجهد يتمثَّل ــ لدى هيغل ــ بالعبادة. وهكذا، فإنَّ العبء الأساس الملقى على عاتق كلِّ دين هو وصل الإنسان بالله وإلغاء بعده عنه، وهذا يفترض سلفًا نوعًا من الانفصال عن الله، الذي يصبح معه التوفيق والمصالحة عمليَّة ضروريَّة تعتمد على عودة العقل البشريِّ المتناهي المنعزل إلى الله والصدور عنه [1].

نلفت هنا إلى أنَّ الوجود الجوهريَّ أو الفكر أو المضمون (أصل العلاقة) لا يتجلَّى كاملاً في الوجود الإنسانيِّ والعقل الإنسانيِّ في أول نفي للعدم، ذلك لأنَّه ينفيه على مراحل، وكلُّ مرحلة عبارة عن خطوات ثلاث تمثِّل الثالثة منها عودة لأنَّ الفكر فيها يحقِّق نفسه في الواقع ويمثِّل وجودًا متعيّنًا، وهذا يمثّل انطباقًا على الجوهر أو الوجود الأول وعودة اليه. وتستمر سلسلة المثلثات في مسيرة الفكر الكلي الطويلة التي يسعى فيها للتحقُّق الكامل . وبهذا لا يمثّل ما يتجلَّى منه في أول نفي إلَّا جزءًا من الجوهر الكامل، وهو في كلِّ نفي يضيف إلى هذا الجزء حتى يتجلَّى كاملاً.

[1]- ينظر: فلسفة هيغل، ولترستيس، ترجمة الدكتور إمام عبدالفتاح إمام، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1975، ص683ـ685.

إنَّ الوجود الظاهر المتعيّن الذي يمثّله هذا الجزء المحدود هو نقيض معادٍ للكلِّ الذي يمثّله الجوهر أو الوجود السابق . وبهذا يرتبط الوجود (الكلّيُّ) بعلاقة تناقض بينه وبين الجزء المتحقِّق. وهو يحاول في كلِّ نفي أن يتجاوز الجزء ليحقِّق نفسه كاملاً، أي أنَّ النفي يستمرُّ، ويستمرُّ الصراع بين الجزء والكلِّ حتى يتجاوز الكلُّ العدمَ كاملاً. وهو في كلِّ نفي يرجع إلى ما حقَّقه ليرى مدى انطباقه عليه، ثمَّ ليتجاوزه ويطوِّره.

في ضوء ما تقدَّم، يجدر القول أنَّ علاقة التناقض بين الكلِّ والجزء تتمثَّل بالتناقض بين الوجود الماديِّ الظاهر والوجود الجوهريِّ الكامل. والوجود الظاهريُّ المتعيّن ليس كاملاً في مراحل وجوده الأولى حتى تتكرَّر عمليَّات إيجاده على مراحل أو أجزاء متتالية ليتحقَّق إيجاده كاملاً. والعقل الإنسانيُّ الجزئيُّ المحدود ليس كاملاً في مراحل وجوده الأولى وليس فعله الذي هو نتاج عقله ومعرفته كاملاً كذلك. العقل الكليُّ يتجاوز العقول الجزئيَّة المحدودة من خلال الولادات المستمرَّة حتى يوجد العقل الإنسانيَّ الكامل(لدى الإنسان الخليفة) الذي يسعى لاستيعاب الحقيقة أو المعرفة الكلّيَّة. ثمَّ إنَّ النفي أو النقض يبقى مستمرًّا ما دام التناقض قائمًا بين الكلِّ الذي يعنيه الجوهر، والجزء الذي هو ظاهر أو واقع لا يعكس إلَّا بعًضا منه. ويبقى الصراع مستمرًّا حتى يتحقَّق الكلُّ تمامًا من خلال الواقع ومن خلال الإنسان .

هذه الحقيقة تفسِّر لنا التطوُّر الذي يحرِّك كلَّ شيء في الوجود. فالموجودات تتطوَّرلأنَّها في بداية نشأتها لايعكس ما يظهر منها أولاً كلَّ الجوهر الكامن فيها وإنما يظهر هذا كاملاً من خلال نفيه للعدم كاملاً. ومن خلال عمليَّة الصراع الدائر أو عمليَّة النفي يتجلّى الجوهر كلُّه شيئًا فشيئًا. فالإنسان مثلاً يكون طفلاً ثم يتدرج في نموه من خلال تجلي الجوهر الكامن فيه والذي يحرك نموه. وكل الحيوانات والنباتات وكل شيء ينمو إنما بفضل التحقق التدريجي لكل الجوهر الكامن فيه. والعقل الانساني يمر بهذا التطور التدريجي المستمر للانسان وذلك لكي يتكامل مع الجوهر الكلي الكامن فيه والذي يوجد مستقلاً عنه كذلك . العقل الانساني يعاني من النقص ولهذا قلنا عنه أنه علاقة تناقض ، فهو يتضمن الإيجاب والسلب . وهو يسعى الى تجاوز السلب الذي فيه لكي يلتحق بالعقل الكلي أو يلاقيه. إن السلب أو النقص الذي في العقل يدفعه الى الحركة والتجاوز لكي يتطور الى الكل الذي هو غاية الحركة لديه.

الحركة تحكمها إذن غاية، هي بلوغ العقل أو الفكر أو الجوهر الكامل نفسه عن طريق الواقع أو الوجود الماديِّ الظاهر ومنه الإنسان، ولهذا فإنَّ النفي أو التجاوز لا يبقى مستمرًّا، وإنَّما له أجل وغاية يقف عندها. الغاية التي انطلق منها، والتي يعود إليها في النهاية عن طريق الواقع. والنفي يقف فقط عندما تكون النهاية هي البداية. وهنا نعرف أنَّ عمليَّات النفي هذه التي تتمثَّل بنفي

علم المبدأ ILMOLMABDAA
العدد الحادي عشر - 1446هـ - خريف 2024م

الوقائع الجزئيَّة - بسبب ما تتضمَّنه من سلب - كانت توجِّهها هذه البداية التي تطالعنا في النهاية. وكما أنَّ البداية هي فكرة خالصة من السلب فالنهاية كذلك، ولذا فهي تمثِّل عودة إلى البداية. هنا فقط يقف النفي أو النقض، عندما لا يبقى هناك تناقض بين البداية والنهاية، وهنا فقط تنتهي الحركة إذ لا تناقض ولا صراع.

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ حركة العقل الذي يحرك العالم وأشياءه ويحرك الإنسان، تحكمها غاية هي البداية الكلّيَّة الكاملة، وهي النهاية التي ينتهي إليها العقل الإنسانيُّ بجهده وسعيه. وعندما تكون النهاية هي البداية في الفكر، فمعنى هذا أنَّه يسلك في حركته سلوكًا دائريًّا، فمن خصائص الحركة الدائريَّة أنَّ البداية فيها هي النهاية وبالعكس، وبهذا فإنَّ «الفكر يؤلِّف منظومة تامة، منظومة أغلقت على نفسها»[1]. و«الطابعُ الدائريُّ للمنظومة يظهر الآن بوضوح تام»[2]، فالنهاية «تبلغ مجدَّدًا بدايتها وترجع إلى نفسها»[3]. والنهاية تبلغ بدايتها عن طريق التحقُّق العمليّ. وبدايتها جوهر أو فكر مجرَّد تصل إليه أو تعود إليه عن طريق الواقع[4]: «والفكرة الخارجة من ذاتها، المتجسِّدة، لتصل بإنتاجها الحياة الواعية إلى العودة لذاتها»[5].

خاتمة

نختم بالقول أنَّ العقول الإنسانيَّة تمثِّل أجزاء في مسيرة العقل الكلّيَّة لأنَّها غير كاملة بسبب ما تتضمَّنه من سلب، وهذا يمثِّل صراعًا بين العقل الذي هو علاقة بين الإيجاب والسلب، أي الذي مازال يتضمَّن السلب أو النقص ولم ينفِه عنه تمامًا، وبين العقل الكليِّ الذي يمثِّل الحقيقة الجوهريَّة المتضمَّنة فيه، والتي يرتبط بها بسبب هذا النقص بعلاقة الجزء بالكلِّ، والخاصِّ بالعامِّ، والمحدود بغير المحدود. فالكلُّ يصارع الجزء فيها، والعامُّ يصارع الخاصَّ، وغير المحدود يصارع المحدود حتى يصل به إليه.. ومن هنا يكون الجزء والخاصُّ والمحدود، هو العائق المعادي الذي على الفكرة الكلّيَّة أن تغلبه، وهذا يمثِّل لها «صراعًا قاسيًا ضدَّ نفسها.. وما تريده هو أن تبلغ مفهومها الخاصَّ ذاته»[6]، أي أنَّ الصراع يبقى مستمرًّا حتى ينتهي التناقض بينهما، وحتى يكون الجزء على قدر الكلِّ، ويكون العقل الإنسانيُّ على قدر الفكرة الكليَّة، ويكون الفعل الإنسانيُّ على قدر الفكر، وهذا يعني أنَّ الفكر يتناقض مع الفعل، ولا يتناقض معه عندما يبلغ به إليه فيكون على قدره .

---

[1]- فكر هيغل، ص 151.

[2]- المصدر السابق.

[3]- المصدر نفسه.

[4]- أنظر: «المنهج الجدلي عند هيغل»، ص 284.

[5]- هيغل، ص 54.

[6]- فكر هيغل، ص 55.

مفاد ذلك أنَّ الفكر أو العقل يعود إلى البداية باستيعاب الأجزاء، فهو يرجع إلى ما حقَّقه ليستكمل جوانب النقص الأخرى، محتفظًا بما حقَّقه بوصفه عناصر الفكرة الكلّيَّة. فهذه السلسلة الطويلة من الإنكارات المتجاوزة لا تمُحى تحت تأثير الحركة الجدليَّة، لأنَّها أجزاء ممَّا يعنيه الكلُّ في سعيه الدائب نحو التحقُّق الكامل[1]. إنَّ الكلَّ يتحقَّق أو يتجلىَّ في العقل الإنسانيِّ بعد سلسلة من عمليَّات تجلّي الأجزاء أو توليدها واستيعابها وتجاوزها: «الماهيَّة تتجلَّى في توليد وزوال أعراضها»[2].

من هنا، يجدر القول أنَّ تاريخ تطوُّر الواقع المادّيِّ إنمَّا هو تاريخ تطوُّر العقل لأنَّ الواقع مصدره العقل كما ذكرنا، وهو تاريخ عمليَّة نقض مستمر، ولكن إلى أجل وغاية. وعليه، فإنَّ النقض هو القانون العامُّ للتطوُّر العقليِّ، وهو حركة العقل التي تحكم تطوُّره، وتحكم تطوُّر الواقع في ما بعد .

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. «موسوعة العلوم الفلسفيَّة»، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، طبعة أولى1983،
3. فكر هيغل، روجيه غارودي، ترجمه وقدَّم له إلياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت،
4. فلسفة هيغل، ولترستيس، ترجمة الدكتور إمام عبدالفتاح إمام، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1975،
5. المنهج الجدليّ عند هيغل، إمام عبدالفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان،
6. نهج البلاغة، دار الأندلس للطباعة والنشر ـ بيروت.
7. هيغل أو المثاليَّة المطلقة، زكريا ابراهيم، الناشر مكتبة مصر للطباعة، 1970،
8. هيغل، مختارات ـ 1ـ ترجمة إلياس مرقص، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1978،

[1]- أنظر: «هيغل أو المثالية المطلقة»، ص 254.

[2]- هيغل، مختارات – -1 ص 90.